آفاق المعرفة



رسالة الفن

عمر حمدي (مالفا) *

منذ زمن قديم، قادم أنا من الشرق، من تلك السهول المغطاة بالشمس والسراب، بالمقابر والخرافات، وبالفراغ ورائحة الدم، بالصمت وبكاء الناي. كنت آكل التراب، أبيع في الأمكنة كعكات حلوى، أو علبة بوظة (مثلجات) لأشتري لونا، وخبزاً ... في الليل كانت تُقتل البراءة بقدوم الشرطة: بحثاً عن المهربين والسياسيين.

أخيراً، يعود أبي من حقول الرصاص الأعمى، لنودّع البيت الطيني، والعقارب والغبار. كان بيتنا من غرفة واحدة، نصفها للغنم والآخر للنوم؛ لحافان وحمار رمادي وعلبة معدن تحتمي فيها ألوان نيروز.

---

* فنان تشكيلي سوري عالمي- مقيم في فيينا.
- العمل الفني: الفنان احمد إلياس.

كانت أطـــراف مدينـــة «الحسكة» في أقصى الشمال السوري هي محطتنا، عَمَلَ والدي في الطرقـــات. اشترى لوحاً أسود، وعلمنـــي الكتابة والحســـاب؛ لكن أحلام والدي لم تكن أكـــبر من أن أكون حمّالا في سوق الخضرة. كنت أرسم في السر خوفاً، بشفرة حلاقة بين اصبعيّ، وعجينة ألوان حمـــراء، على قماش مـــن أكياس السكر. أهرب من البيـــت، أنام في الخارج بثيابي وحذائي الممزّق مثل دفاتري. عملت في دار للسينما، أرسم وأخطط وأكنس. تنتظرني والدتـــي في آخر الليـــل لتضع على قدمّي المتورمتين زيتاً ساخناً، وملحاً وشعر ماعز. أنهيت تعليمي، لكنني لم أتعيّن معلماً.

وضعت جسدي، و٣٧لوحة في صندوق خشبـــي، وسافرت على ظهر شاحنة كبيرة إلى دمشق. دمشق الحلم والمغامرة. عرضت أعمالي المشحونة بوجوه الحصّادين ورعاة الغنم، وجوه مثل أرغفة الخبز، وجوه تحمل ربطات ناي وأغنيات. لكن حدائق دمشق لم تكـــن حنونة مثل تراب الشمال. لوحاتي الحمراء التي سُميت حينذاك «المجزرة» لم تكن قـــادرة على البقاء؛ فاستأجرت عربة نقـــل بثلاثـــة دواليب للذهـــاب إلى خارج المدنيـــة، إلى مـــكان تُجمع فيـــه القمامة وأعين الفقراء؛ هنـــاك أنزلت الصندوق، فأخرجت اللوحـــات ووضعتها على شكل كومة كبيرة، وأشعلت فيها النار.

راحـــت النار تسري بهدوء على الوجوه والأيدي، ثم نبضـــت الكومة بلهيب كبير؛ تشوهت الوجوه وتجعّدت الأيدي فبدت لي أجمل من قبل، تحوّلت اللوحات إلى كومة سوداء داكنة صغيرة، تأملتها وذهبت.

أثناء الخدمـــة الإلزاميـــة، كان الموت حاضـــراً في كل لحظـــة. كـــبرت شواربي وتوضّحـــت عضلاتي. من جـــرّاء الزحف في المهاجع وحقول الشوك، تقيّحت أصابع قدميّ، فأخذت أركض بفردة حذاء كبيرة؛ واشتدّت آلام الظهر. «سيدي القائد» كان يعـــرف أنني أرسم في الخفـــاء نساء على الجدار، وأكتب رسائـــل عشق لأصدقائي الجنود إلى عشيقاتهم، فأحالني إلى قسم للصحافة العسكرية. كنت أنام على أوراق الجرائد التالفة في المطابع القذرة، وكنت أرسم عنـــد الأصدقاء. ومضت السنوات، سبـــع سنوات بدلاً مـــن اثنتين. حين غبت مرة ثلاثة أيام، أدخلـــت السجن شهراً. لم أكن قادراً على استئجـــار متر مربع لأنام فيه؛ كنت فقيراً، أتحمّل بصمت مسؤولية كل شيء. كنت الضحية لأخطاء الآخرين ولأن قائـــدي كان حريصاً على استبقائي مع بقاء المجلة، فقد طال الانتظار إلى أن منحني أخيراً غرفة مـــن حجر الأسمنت

في مكان خارج المدينة، وكنت سعيداً.

لكــن أحلامــي ومغامرة السفر إلى مـا وراء البحر لم تكن تفارقني؛ فبعت غرفتي وهربت مــع امــرأة وطفلنا الأول عــبر الحــدود. كانت بــيروت دمــاراً ولغــة القتل هوايــة؛ رأيت البحــر للمرة الأولى، كان أزرق داكناً، مليئاً بالسر والخوف. ليلة صعودنا على مــتن سفينــة صيادي سمــك إلى قبرص، دخلنا الأزرق الكبــير، وأنا أحضن طفلي؛ أحاول أن أقنع نفسي بالحريــة؛ وتلاشــى الأفــق الجبلي. امتلأت بالذكريات المبعــثرة: والدتــي، أخوتي. نامت «جانيت» على كتفي وأنا أبحث عن الله.. عندها عرفــت أنني لن أعود ثانية إلى الوطن...

من قبرصــ إلى فيينــا؛ في فيينا كان الوقــت مساء، بلا نقود، بــلا لغة. سلّمنا أنفسنا إلى الشرطــة كمهاجري حرب، ثم أرسلنا إلى ثكنات خاصة تابعة لهيئة الأمم المتحدة مخصّصــة للمهاجرين الأجانب. بعــد مــدة حصلنا علــى جــوازات سفر مؤقتة، فاستأجرنا مرآب سيارة، سكنا فيه إلى أن مُنحنــا شقة صغيرة في بناء قديم. بدأت أبحث عن عمل، فحملت بيدي ورقة مكتوب عليها بالألمانية «Maler» أي رسام أو دهان، وذهبت إلى دائرة العمل، فأرسلت إلى شركة للدهان، وعملت دهاناً لكن الأجر لم يكــن كافياً، فكنت أنتظر عند المساء مع المتسوّلــين والسكارى عند إحدى محطات القطارات الرئيسية، لأحصل على شوربة

ساخنة وخبز سميك، وأحياناً ثياباً قديمة للشتاء، من سيارة لإحدى الدور الخيرية. غالية كانــت أدوات الرسم، فكنت أذهب لأتأمــل الدكان القريــب المحشّو بالألوان والفراشي الجميلــة والقماش وحاملات اللوحــات... ثم أعود فأرسم بالفحم على أوراق الجرائــد وورق الجــدران، حتــى اشتريت ألواناً.

حملت لوحاتي إلى كل صالات العرض، لكنّ أيّاً منها لم تقبــل عرضها بل وأحياناً حتى مجرد تأملهــا... جاءتنا طفلتان؛ ثم تركتني زوجتي بعد أن تعرّفت على عازف قيثارة أمريكــي، وتواعدا على السفر إلى أمريــكا... استأجرت غرفــة قبو رطبة، وبــدأت أنســخ لوحــات انطباعية لأحد دكاكــين اللوحــات التجاريــة، «مونيــه- بيســاور- سيسلــي- رينــوار- بونــارد- كوستاف كليمت- سورولا ...». رسمت وروداً وشجراً وسماء للمــرة الأولى. ثم خرجت إلى الطبيعة وبدأت أرسم مباشرة؛ أركض من حقل عنــب إلى آخر، ومن تلة لأخرى أبحث عن المشهد الذي أحبه، راسماً حقولاً وبيوتاً من قرميــد أحمر وآفاق متلاشية. كنت أدخل حقول شقائق النعمان، لأمتلئ بالأحمر الشرقي؛ تعلمت كيف ألون تعلمت تفاصيــل الأشيــاء، حركتها، لــون الهواء والضوء والرائحة. في نهاية الأسبوع كنت ألتقي مع أطفــالي؛ كانوا كل ما أملكه في حياتي. حضرت مرة أدق الباب، فلم يُفتح، فخرجت جارتنا العجوز لتقول لي إن المرأة والأطفال سافروا إلى أمريكا....

نزلــت إلى الشارع، مثــل طفل يتيم، لم أكن أعرف ماذا أفعــل غير البكاء.. كنت وحيداً... والغربة وطناً...

بــدأت أبيــع لوحاتــي إلى صاحــب «غاليري» صالــة عرض؛ كان يعرف كيف يستغــل فقــري وحالتي البائســة... بعد أربــع سنــوات، حصلــت علــى الجنسية النمساويــة، أصبحت عضــواً في الاتحاد الفخري للفنانــين النمساويين، بمجموعة متحــف Kunstler Haus المعروفة في فيينا. وقد حصلت عــن طريق المحكمة، على رقم حساب بنــك في لوس أنجلوس، وبدأت أرسل الأقساط الشهرية من النفقة لأطفــالي. ثم سافرت إلى هنــاك، أبحث في الأمكنــة والشوارع الطويلة، في الوجوه وأماكن المهاجريــن، حتى عدت إلى فيينا وأنا أحمل في جيبي صور أطفالي الثلاث. عدتُ إلى غرفتي الرطبة، تركت الطبيعة، بــدأت أرسم مــا كان مؤجــلاً في داخلي كالــبركان، كنت أرسم مثــل «الغلادياتور» المصارع، بضراوة وقسوة. أنهيت مجموعة «الغربــاء» ثم «الرسم بالــدم»، «الشاهد» و«الأحمر الكبير»، متجــوّلاً بين التعبيرية

والتجريـــد... عشـــرون عامـــاً بعد غياب أطفالي، تزوجت خلالهـــا امرأة نمساوية وجاءنا طفلتـــان، ثم تركتها لأتزوج رسامة نمساوية، أعيش معها اليوم؛ عشرون عاماً وأنا ا أنتقـــل بلوحاتي من مكان إلى آخر، لم أتـــرك عاصمـــة، أو مدينـــة أوروبية أو أمريكية إلا وعرضت فيها، لم أترك صالة عرض إلا دخلتهـــا، أو متحفاً أو مهرجاناً للفـــن، لم أترك كتاب فـــن إلا درسته. لكن المطـــر في عينـــي كان لا يـــزال يهطـــل، كالمعـــدن السائل، والفجـــر يدعوني للنوم في مكاني، مثـــل رطوبة اللون. كان الوطن يأتيني مثل اللحظـــة التي تسبق الإعدام؛ وها أنا بعد ثلاثين عامـــاً من الغربة: كل صباح أواجه المساحة البيضاء في مرسمي المليء بالدخان ورائحة الألوان والأقمشة والفراشي والكتب واسطوانات الموسيقى؛ أقـــف مثل شجـــرة تبحث عـــن جذورها، وحيداً، أقنع نفسي بالانتماء ولعبة الزمن، مثل الكلمات التي تخـــترق مفاصل المدن الكبيرة بلا وداع.

اليوم لم تعد الشوارع والازدحام وأمكنة العـــذاب تثـــيرني؛ أتأمل لوحاتـــي المطلة بصمت من كل زاويـــة، وأسمع موسيقاي، وأعـــرف كيف تكون اللوحـــة مخبأً، وطناً، مكاناً، فراشـــ نوم، جسد امـــرأة، فراغاً أبيض مليئـــاً بالخوف والقلـــق؛ المساحة البيضاء تتلاشى كلمـــا اقتربت منها تبدأ المغامرة في الجسد إلى اللمسة الأولى على السطح القماشي، لأقترب من الحقيقة... وفي داخلـــي حلـــم لم يكتمـــل بعـــد... لا شيء يدعـــو إلى الترجمـــة... ملايين من الإيحـــاءات والبقع المتداخلة بلا زمن، بلا أطر، لتكون في النهاية رحلة عمر، شهادة عصر. أقتل بـــراءة الفراغ لأحقق التوازن في هذا العـــالم الصعب.. حين أنظر اليوم إلى هـــذا العالم الملتهـــب، إلى الأرض التي لا تزال تبكى دمـــاً، إلى بقايا التاريخ، إلى روح الصخـــر والى حركة المـــدن وطوفان البشر، إلى معامل الذرّة والآلات والتلوّث، إلى الأسلحـــة المتطـــورة وطـــرق الإرهاب المختلفة، أمرر بيدي على بقايا ضوء أتعلّم منه أن الحياة لا تزال جميلة....

في اليـــوم التـــالي، أسافر وأنـــا أحمل سمفونيتـــي معي إلى الأفـــق، عبر المسافة التـــي كلمـــا اقتربـــت منها، كـــبرت أكثر؛ .أدخل النسيـــج الثقافي للشعوب، والفنون التي فرضت نفسهـــا، وبما لعبته من دور على صعيـــد الفضاء المعرفي الجديد؛ من هيمنة ثقافة الصورة الإلكترونية وتقلباتها وقدراتهـــا، وصـــولاً إلى الإطـــار الواسع لطرق التعبير المختلفة، أبحث عن المفهوم الجديد للشكل، الشكل الذي يحدّد هوية هذا العالم المادي...

لأجل حتمية المشاركة سوّية في التأسيس لبناء المستقبل، يجب أن نكون بحجم هذا التطور؛ فلنبــدأ في مرحلة بناء «الكوادر» المتخصصة، متاحف من نوع آخر، صالات عرضــ متطــورة، تحديث آليــات العمل الفني ومواده الجديــدة، وصياغاته، رفع مستوى الذائقة الفنية المحلية في المدرسة والشارع إلى مستوى إمكانية الانفتاح على الآفاق العالمية. إن أرضية الحوار المعرفية الخاصة بالنافذة العربيــة المنفتحة على العــالم، تتطلــب منــا أن نتجــاوز حدود قراءتنــا الموروثــة والمحلية فيمــا يتصل بالسجل التاريخي والزماني لتجارب الفن التقليديــة. علينا أن نتأمــل الأسئلة التي تطرحها الحداثة، وأن نفتــح الباب أمام مدارس التفكير المعاصــرة. بهذا الانفتاح وبالثقة بالنفس، نكون قد اقتربنا أكثر من ضرورة تقديم هويتنا وخصوصية ملامحنا الثقافية والأخلاقية؛ عندها نفهم العلاقة الإيجابية بين العالمية والمحلية، من خلال التباينات في استخــدام، أو قبول، العولمة في التجــارب الفنيــة، وعــبر التحــولات الجاريــة في مفاهيــم الجمــال في الفكر الإنســاني، والدخــول في دائرة الحوارات الديمقراطية لتحقيــق الحدّث... وصولاً إلى العلاقة الجدلية القائمة بين الإنسان والمستقبــل، بــين طموحــات الشعوب في الحرب والسلام، بــين العقل والروح، بين قدسية الحياة واكتشاف الحقيقة. وحتى نفهم عالمنــا وموقعنا منه علينا أن ندرس المتغــيرات الخارجية التي تترك باستمرار ظلالها علــى العلاقة بين الإنسان والفن. لا بد من التحرر مــن الخوف والتصحّر، ولا بــدّ مــن احــترام نتاجــات التشكيل العربي، المتميزة منها، والسعي إلى الأخذ بمــا يخدم تطلعاتنا وقيمنــا وموقفنا من هذا العالم....

حــين نختصــر الزمــان والجغرافيا الثقافية لأجل تعميــق الذاكرة الجمالية، وندمــج الإنســاني بالمــادي، والواقــع بالافتراضــي، وبتسخــير العلــم والتقنية والتكنولوجيا، وغيرها من عمليات التطهير للرؤى الأكاديميــة أو الأيقونية، نكون قد دخلنا شبكة الاتصالات كظاهرة حضارية لتحديد مستقبلنا الجديــد، على قواعد أكثر إنسانية وعدالة وتكاملاً...

ولاستيعاب المضامين الجيدة في عولمة الفن الخاضعة لأيديولوجيا الراهن، علينا إزالة الهوة بين المبدع والمؤسسة، بين الفن والمحيط كما هــو في علم النفس الخاص بالاستراتيجيــات الجديــدة في الاقتصاد والسياســة والإعــلام. بهــذه التحالفات المتطورة نصــل إلى القناعة بضرورة الفن وتحقيــق القــدرة علــى الفهــم والقبول

المتبادل والســـلام المتبادل. وببرامج النقد الصائبة، في نظام غير معقد وفي فضاءات تنويرية مستقــرة، نعــزّز ثقافتنا بالأدب الحــرّ، والسينما والمســرح والموسيقى، في الهندســـة والنحت والتصويــر، في وسائل الإعــلام والاتصـــال «الميديـــا» وأشكال الفنون الجديدة «الفن الأدائي»، الأوبيكت آرت، الأنشتلاسيـــون، المفاهيمي، الفيديو آرت، الديجيتـــال آرت (الفن الرقمي)، بل إلى ما هو أبعــد من حدود المادة، وحدود القيم البصرية... من هنا نكون قد حققنا مناخـــات جديدة لحقول اللغـــة الطليعية في محاكمـــة جماليـــة حاسمـــة في عـــالم شديـــد الحساسيـــة، أي في استراتيجياته وطموحاته...

هـــذه الرؤية للعـــالم القـــادم، هي في الحقيقة واحـــدة في منهجية وتحليل هذا اللقاء الدولي كمنتـــدى للنقاشات العالمية المعاصـــرة؛ المنتدى الذي يحمـــل اهتماماً خاصـــاً بالنهوضـــ في سلوكيـــات التعبير المختلفـــة، أي من الكثافة، إلى الأصل، من الخاص إلى العام، مـــن الكلي إلى المركز، من العِـــرق إلى الأمة، ومـــن الإنسان إلى العالم....

القيـــم المطروحة في عالمنا هذا تحتاج إلى «فلتر» مصفاة من نوع آخر، وإلى تجاوز للكليشهات المستهلكة عبر التاريخ والذاكرة والمكان لأن التنافس المفروض بين التقليد والحداثة، بين الشرق والغرب، يضع كافة تجاربنـــا الفنيـــة موضع الشـــك... ومن هنا أدعو إلى إتاحـــة فرصة أكبر لترجمة سيكولوجية «نفسانية» للتاريخ ومعرفة سر الثقافات واختلافاتها وأهميتها. إن القلق قادم من صور الحياة المتتالية، الصور التي تمنـــح الحياة للجميـــع- لا بموت الحياة؟ إبداعاتنا يجب أن تكـــون امتداداً للحياة وقدسية للروح، كما إن سيرة حياة أي عمل فنـــي في النهاية شهـــادة عصر، وهو ملك للإنسانية جمعاء.

هذه هي رسالة الفـــن: رسالة سلام، ومحبة، ومناهضـــة للعنف ولثقافة الكره، رسالـــة القبول وقبول الآخـــر، والاحترام المتبـــادل لثقافة كل شعب علـــى حدة ... ذلـــك أن قيمـــة الجسد مثـــل الضوء في الحركة، في التغيير، في الطريقة، وليس في رفض التيار. لن نخسر أصالتنا بالتلاحم مـــع إيجابيات الآخر في الفـــن؛ لأن الفن يلعـــب دوراً محوريـــاً في تكويـــن أفكارنا ورؤيتنا كشكل مـــن أشكال تحقيق الذات، سواء أكان قومياً أو كونياً؛ ولأن المضامين التـــي نتحاور حولها اليـــوم هي نفسها في كل مكان؛ ولأن الأنهار تلتقي في النهاية في بحر واحد... ■■